فلسطين بين ستالين وغورباتشوف

بقلم: غسان سلامة*

الحياة ٢٠/١٢/٨٨

ضعف القدرة الذاتية العربية هو ما يمنح ثقلا اضافيا لخصومة الخصم وتحول الحليف.
وهذا ما تظهره النتائج العربية لسياسة غورباتشوف الجديدة.

المسألة [illegible] لقد قامت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بتحول عميق في مواقفها، واستراتيجيتها بل في هوية حلفائها. لكن واحدا من هؤلاء الحلفاء لم يتغير، وهو الاتحاد السوفياتي. اذ ان موسكو، التي دعمت في السابق المنظمة في مواقفها المعروفة لعبت الدور الأساسي، ولو الخفي اجمالا، في التحول الحاصل حاليا. فموسكو لم تكتف بتشجيع المنظمة على قبول قرارات مجلس الامن المعروفة، بل هي ضغطت بالحاح في هذا الاتجاه، وامنت الحماية السياسية اللازمة لرئيس المنظمة من على يساره، ان داخل قيادة حركة فتح، او في المنظمات الأخرى.

هذا الدعم، بل هذا الالحاح اثار حفيظة البعض وتعجب الكثيرين ويبدو ان قياديا فلسطينيا بارزا فاجا ديبلوماسيا اوروبيا التقاه أخيرا بالتحليل التالي: «السوفيات يساعدوننا كثيرا، بل اننا بدأنا نخاف من هذا الدعم. هم يريدوننا ان ننفذ المطالب الاميركية، ويدفعوننا في هذا الاتجاه حتى بتنا نتساءل هل انهم قرروا تسليمنا للأميركان مقابل سحب بعض الصواريخ الاميركية من اوروبا». ويدل هذا التساؤل على استغراب الكثيرين لمواقف موسكو الأخيرة، سيما بعد مكوث بولياكوف، الديبلوماسي المخضرم، اسابيع طويلة في العاصمة التونسية قبل مؤتمر الجزائر، ودورة جنيف. ويتحول هذا الاستغراب حرجا واضحا عند حلفاء موسكو الذين لا تعجبهم السياسة الحالية لمنظمة التحرير، بدءا بسورية وانتهاء بالكثير من الشيوعيين العرب. فهؤلاء غير قادرين ان يفسروا لأنفسهم، ولا ان يبرروا لقواعدهم الموقف السوفياتي الحالي من مسالة فلسطين، وهو موقف لو تبناه عربي لكان اتهم بسرعة بالانهزامية وببيع القضية.

ولا يكفي العرب ان يضعوا هذه المسالة في سياق حل النزاعات الكثيرة في اقاليم العالم من انغولا الى كمبوديا ومن افغانستان الى شط العرب. فعلى أهمية هذه النزاعات، وحدتها، ومئات الالوف من الضحايا التي سقطت بسببها، تبقى لمسالة فلسطين طبيعة مركزية، يصعب تجاهلها. فعلى ارض فلسطين لا تصطدم القوميات والايديولوجيات فحسب، ولا حقوق الشعب الفلسطيني مع أطماع المشروع الصهيوني. فعلى ارض فلسطين تخاض المعركة الفاصلة بين الشرق العربي والاسلامي وبين الغرب، بدءا برفض العرب الحازم تحمل المسؤولية التاريخية لجرم هائل لم يرتكبوه ولا كانوا متورطين فيه، وهو جرم النازية العنصرية بحق ابناء الدين اليهودي. وعلى أرض فلسطين بالذات، يخوض العرب بوصفهم ابناء الملحقات التابعة في النظام الدولي، معركة رفض إلباسهم مسؤولية ايديولوجيا عنصرية بحق اليهود، خططها، وشارك فيها، ونفذها المركز الغربي للنظام الدولي، قبل ان يصدر تبعاته الى منطقتنا من العالم.

مسالة فلسطين ليست اذن مسالة حدود، ولا علم ولا جمهورية اخرى تضاف الى لائحة دول العالم. انها مسالة شائكة لن تنفع الديبلوماسية في حلها، ما لم يحصل تحول عميق في ذهنية الغرب، وهو المسؤول الاول عن حدوثها، ولكن الغرب يضم هنا، ولا شك، الاتحاد السوفياتي. من هنا هذا التشوش الحاصل حاليا في تفسير الموقف السوفياتي: هل ان موسكو تدفع في اتجاه الحل السلمي لمسالة فلسطين لانها تعلم ان هذا الحل هو الوحيد الممكن او انها تسعى في هذا الاتجاه لانها عادت تتبنى الموقف السوفياتي الاساسي من المسالة، وهو موقف يصعب على العرب قبوله؟ بكلام اخر، هل ان غورباتشوف يسعى لإحقاق بعض الحق الفلسطيني، او انه يريد، من خلال التعديل الجوهري الحاصل حاليا في موقفه، تسريع عملية «تغريب» الديبلوماسية السوفياتية؟ هل هذا دعم سوفياتي للموقف العربي بوسائل جديدة او عودة حثيثة للأساس، لموقف ستالين من فلسطين؟

ذلك ان دولة اسرائيل ما كانت على الارجح لترى النور لولا موقف ستالين الحازم في هذا الاتجاه. فالموقف السوفياتي المؤيد لقيام دولة اسرائيل بدا واضحا منذ مؤتمر يالطا سنة ١٩٤٥، ولو ان المسالة لم تكن آنذاك مدرجة رسميا على جدول الاعمال، وازاء المحاولات البريطانية - الاميركية لحل المسالة في اطار غربي بحت، كان ستالين يصر على اشراك الاتحاد السوفياتي، ولكن لمصلحة من؟

الجواب واضح وصريح: لمسالة الدولة اليهودية الجنينية. ذلك ان ستالين قرر السماح لمئات الالوف من اليهود بالهجرة من المناطق التي يسيطر عليها الجيش الاحمر نحو المناطق التي تسيطر عليها الجيوش الغربية وهو على علم تام بان نسبة عالية من هؤلاء المهاجرين سوف يحاولون الانتقال بعدها من اوروبا الى فلسطين. وانتقدت الصحافة السوفياتية آنذاك بوضوح رفض الحكومة البريطانية قبول دفعات جديدة من المهاجرين اليهود الى فلسطين. وطالبت موسكو بالحاح بنقل مسالة فلسطين من اروقة الحكومة البريطانية الى الامم المتحدة، وكان هذا التحويل مطلبا صهيونيا واميركيا علنيا. وعملت موسكو على انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وكان التسريع بانهاء الانتداب آنذاك هدف المجموعات الصهيونية على اختلاف مشاريعها.

وفي ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٧، اي سنة كاملة قبل انهاء الانتداب كان اندريه غروميكو، نائب وزير الخارجية السوفياتية آنذاك، يصر على ضرورة تقسيم فلسطين، وكان هذا بالذات مطلب الحركة الصهيونية. ولقد برر غروميكو موقف بلاده هذا بالالام التي اصابت اليهود على يد النازية، وبتلك التي كانوا لا يزالون يعيشونها بسبب سوء أحوالهم في معسكرات ما بعد الحرب. ولقد راى غروميكو ايضا ان هناك علاقة قديمة بين اليهود وارض فلسطين، وهذا ما كان يصعب على العرب رؤيته مترجما الى مشروع استيطاني، وراى غروميكو ان الشعب اليهودي تالم اكثر من غيره ومن هنا ضرورة مراعاته، ولو على حساب الفلسطينيين. واهم من ذلك كله، راى الاتحاد السوفياتي آنذاك ان حق تقرير المصير يطبق على المستوطنين اليهود في فلسطين، بما فيه حق اقامة دولة مستقلة لهم.

لقد ادت هذه المواقف السوفياتية الحازمة في الفترة الحرجة جدا بين ١٩٤٦ و١٩٤٨ (حيث كان بالامكان تلافي المازق والمعضلة) الى مبادرات عملية غيرت ميزان القوى على الارض بصورة حاسمة. فالموقف السوفياتي سرع في العملية الاستيطانية، وفي انهاء الانتداب البريطاني (الذي كان على علاته يشكل آنذاك عقبة امام هذه العملية)، وفي دفع الموقف الاميركي نحو حسم الجدل الحاصل آنذاك في واشنطن لمصلحة اسرائيل. ذلك ان موقف ستالين اثر على ما يبدو في قرار الرئيس ترومان تجاوز تحفظات الخارجية الاميركية والاعتراف بالدولة اليهودية.

واهم من ذلك، كانت تشيكوسلوفاكيا، مع علم موسكو بالامر، هي المصدر الاول للاسلحة لصالح المستوطنين اليهود في خلال كل هذه الفترة الحرجة، بينما لم ترفع الولايات المتحدة حظرها عن بيع السلاح لهذه المنطقة حتى مطلع سنة ١٩٤٩. ولقد اعترف بن غوريون «ان الاسلحة التي اشترتها اسرائيل من تشيكوسلوفاكيا هي التي انقذت الدولة الجنينية من الزوال». وايا كانت الحقيقة، فموسكو الستالينية كانت اول دولة تعترف قانونيا بدولة اسرائيل.

هذه الحقائق كان اليمين العربي يعود اليها للتهجم على الاتحاد السوفياتي، حليف الحركة التقدمية العربية. ولكن الاستعمال الرخيص بل والتافه لهذه الحقائق من قبل بعض الانظمة المتخوفة على نفسها من السقوط لا يلغيها ولا يجب ان يطمسها. واذ نحن نسترجعها اليوم، لا يمكن لنا تناسي الجهد الجبار الذي قدمه الاتحاد السوفياتي لغير قضية عربية منذ ذلك التاريخ.

لكن السؤال يبقى قائما: هل نحن ازاء عودة لهذه المفاهيم والسياسات ام ازاء واقعية سوفياتية مؤيدة للعرب وان بوسائل جديدة؟ وبينما تشن البريسترويكا حملاتها الكثيرة على ستالين وعلى الستالينية في المسائل الداخلية السوفياتية، لا يمكن للمرء إلا ان يرى بعض اوجه الشبه بين مواقف موسكو سنة ١٩٤٨ ومواقفها سنة ١٩٨٨. ففي الحالتين، كانت موسكو تدعو العرب للواقعية، وتهتم بحل المسائل في الامم المتحدة، وتتجاوز العقيدة الرسمية في مجال الدين «لتفهم» الطبيعة الخاصة لدولة اسرائيل. ولكن الأهم هو اننا نرى في الحالتين رغبة في «تغريب» الاتحاد السوفياتي، اي في جعل الأطراف الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة، تعتبره دولة حضارية، مسالمة، راشدة... وكبرى.

وهذا بالذات مصدر قلق الكثيرين من العرب. هل ان موسكو بالفعل في صدد «بيع» فلسطين لقاء عدد من الصواريخ اقل في أوروبا؟ او بكلام آخر، هل ان موسكو الساعية لأن تكون مقبولة ومعتبرة في الراي العام الغربي، في صدد دفع فاتورة كبيرة، بل كبيرة جدا، لاحد اكبر واهم اللوبيات العاملة في الغرب المعاصر، وهو اللوبي الصهيوني؟ او هل ان الامور العالمية تغيرت بصورة استوعبها «الرفاق» في موسكو ولم يفقهها بعد غير «رفيق» وغير حليف في كوبا وفيتنام وكوريا، بل في الشرق الأوسط؟

صحيح بل صحي ان نطرح هذه الاسئلة على انفسنا كما على «الأصدقاء» السوفيات. لكن الاصح هو ان نتساءل كيف أوصل العرب انفسهم لوضع يرغمون فيه على تعديل مواقفهم من قضاياهم الذاتية وفقا لشروط هذا البلد ولنصائح ذاك. فالمسالة الاساس تبقى هي هي: غياب القدرة الذاتية العربية التي تحمي العرب من مؤامرات اعدائهم كما من تحولات حلفائهم.

---

* أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الأولى.